معالم الاعتدال في الخطاب

المستنبطة من خطاب الأنبياء لأقوامهم في القرآن الكريم

أ.م.د. طه إبراهيم شبيب أ.د. أحمد ختال مخلف

جامعة الأنبار

كلية التربية للعلوم الإنسانية

drtaha_2000@yahoo.com

ISSN: 2071-6028

ISSN: 2071-6028

معالم الاعتدال في الخطاب المستنبطة من خطاب الأنبياء لأقوامهم في القرآن الكريم

أ.م.د. طه إبراهيم شبيب
أ.د. أحمد ختال مخلف
جامعة الأنبار/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

ملخص باللغة العربية

جاءت فكرة البحث لتركز على سمو خطاب الأنبياء لأقوامهم مع أنه يُعارَض من قبلهم بالرد والأذى للأنبياء ومتبعيهم، فأردنا تسليط الضوء على جزء من خطابات الاعتدال من خلال عرض نماذج حية لصور واقعية تتمثل بدعوة الأنبياء والرسل لأقوامهم الضالين عن الحق وفق منهج الهداية الذي ارتضاه الله لخلقه، ومع هذا التيه والضلال الصادر من أقوامهم ومع التعنت وممارسة شتى أساليب القمع والوحشية في حق أنبيائهم إلا أنهم كانوا مأمورين بلين القول والحكمة والموعظة الحسنة فكانت أساليب دعواتهم متحدة مضمونا، مختلفة تشريعا، للوصول إلى هدف الاعتدال في خطاب الأنبياء لأقوامهم، ولكل نبي منهم أسلوب عرض خاص يفوق العقول البشرية قصه الله ﷻ في القران الكريم، فالأنبياء هم القدوة بلا منازع، فلذا ارتأينا في ظل هذه الظروف الحالكة والمستعصية، وضياع الخطاب الناجح في عالم الأهواء والتصدر أن نقف وقفة متأمل في تلك القصص لتكون مصباحا مضيئا، والوقوف على نماذج مختارة من خطاباتهم مع أقوامهم للوصول إلى معالم خطابية ترشد الأمة في تقرير مصيرها. **الهدف من البحث:** يدور البحث حول الاجابة عن الأسئلة الاتية: كيف كان خطاب الأنبياء لأقوامهم؟ وما هي السبل الكفيلة لنجاح الدعوة مع الاقوام المعاندين لقبول الحق؟ وماهية الخطاب المعتدل الناجح. **مشكلة البحث:** أن تكون طبيعة الخطاب الناجح الذي يجب ان يتبناه الإنسان في تعامله مع من يدعوهم ويتعامل مستنبطا من خطاب الأنبياء عليهم السلام، من خلال استنفادهم للوسع في مجال الدعوة وعدم يأسهم من أقوامهم، واستخدمنا في هذا البحث الأسلوب النظري التطبيقي من خلال ربط الأحداث والوقائع بما تم ذكره في القران الكريم من قصص للأنبياء السابقين إذ ان الله تعالى لم يقص لنا هذه القصص عبثا، وإنما من اجل اخذ العبرة منها. من هنا يجب تحقيق الاقتداء الكامل والتخلق بأخلاق الأنبياء عليهم السلام في انتهاج الخطاب المعتدل حتى مع المخالفين في المنهج، لأن ما لا يمكن تحقيقه بالقوة يمكن أن نحققه بالأسلوب اللين والخطاب المعتدل، وليكن المنهج النبوي في الخطاب هو الطريق الذي نسير عليه في كل تعاملاتنا سواء مع المتفقين أو المخالفين لنا في الفكر والمنهج.

الكلمات المفتاحية: معالم ، أنبياء ، أقوام

Aspects of Moderation Deduced from the Addresses Of Prophets to their People in the Holy Quran

Ass. Prof. Dr. Taha Ebraheem Shabib
Ass. Prof. Dr. Ahmad Khatal Mukhlef

Abstract: This paper focuses on the elevation of the Prophets' addresses to their peoples despite the opposition and harm these people inflect on the prophets and their followers. The paper seeks to shed light on the addresses of moderation by quoting live and realistic specimen of the call of the prophets and messengers to their misguided peoples to follow the right path of God. Prophets were instructed by God to use soft speech, wisdom, and right sermon in their calls in spite of the animosity and oppression of these people. Each prophet has his own unique style of presentation and call that far supersedes human minds. Because prophets are the ultimate model to humanity and in view of the dark and hard conditions this paper contemplates the Quranic stories of Prophets and a sample of their addresses to their people to deduce discourse guidelines to guide the nation in deciding its destiny. The paper seeks to answer the question of how was the Prophets' address to their peoples. What are the means to make their call succeed? And what is the essence of successful moderate discourse. The nature of the successful address, that the individual should adopt in his dealings with other, should be derived from the prophets' address as they take all available time in their call and they're never going desperate. The paper follows the theoretical and applied methods to combine the events and happenings to what the Quran relates in the stories of the prophets. Individuals must follow and imitate the ethical behaviors of the prophets in using moderate address with the sinners and divergent because what force fails to achieve can surely be achieved by mild style and moderate address. The prophetic approach to address should be the path we follow in all our dealings with the pious and sinners alike.

Keywords: landmarks, prophets, people

المقدمة

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على الحبيب المصطفى وعلى اله وصحبه ومن سار على طريقه واهتدى.. وبعد...

فإن خطاب الدعوة الذي جاءت به الأنبياء هو خطاب القدوة المبني على الدعوة إلى الله تعالى، فالأنبياء تحملوا من الأذى الكثير من أقوامهم ومع ذلك كانوا مأمورين باللين في الخطاب واستنفاد كافة المحاولات وعدم اليأس من إيمان أقوامهم، وهذا تم ذكره في القصص القرآني التي ذكرت لنا تفاصيلا كثيرة لقصص الأنبياء مع أقوامهم.

فالخطاب الديني عموما يهتم بنهضة الإنسان ويميزه عن غيره من المخلوقات، إذ أنه يخاطب العقول والفطر السليمة، وكل دين أعطى هذا الإنسان كثيرا من المفاهيم والتصورات عن الوجود والحياة وحل العقدة الكبرى عند الإنسان حلا صحيحا بواسطة الفكر المستنير، وهو الحل الوحيد الذي يوافق فطرة الإنسان ويملأ العقل قناعة والقلب طمأنينة، كما ان الخطاب الديني مؤثر لأنه يخاطب عقل الإنسان وفطرته السليمة ويحرك مشاعر الإنسان وعواطفه ويملأ العقل استنارة، فمن هنا جاءت فكرة البحث لتركز على سمو خطاب الأنبياء لأقوامهم مع أنه يُعارَض من قبلهم بالرد والأذى للأنبياء ومتبعيهم، فأردنا تسليط الضوء على جزء من خطابات الاعتدال من خلال عرض نماذج حية لصور واقعية تتمثل بدعوة الأنبياء والرسل لأقوامهم الضالين عن الحق وفق منهج الهداية الذي ارتضاه الله لخلقه، ومع هذا التيه والضلال الصادر من أقوامهم ومع التعنت وممارسة شتى أساليب القمع والوحشية في حق أنبيائهم إلا أنهم كانوا مأمورين بلين القول والحكمة والموعظة الحسنة فكانت أساليب دعواتهم متحدة مضمونا، مختلفة تشريعا، للوصول إلى هدف الاعتدال في خطاب الأنبياء لأقوامهم.

ولكل نبي منهم أسلوب عرض خاص يفوق العقول البشرية قصه الله سبحانه وتعالى في القران الكريم، ويمتاز بالفطنة والرحمة والحكمة وعدم الانتصار للذات مع الدعوة إلى الجلوس حول مائدة الحوار وتبني العوامل المشتركة من خلال كلمة سواء وتحكيم جوهرة العقل في ملكوت السموات لبيان من يستحق العبادة من غيره لا لتحكيم الأهواء والظنون التي لا تغني من الحق شيئا مع التقليد الأعمى لسلسلة تائهة في ميدان الحياة، وبهذه الخطوات الإيجابية استطاعوا زعزعة الباطل وتفنيد الشبهات ونقل العبادة إلى مستحقها من غير ند ولا شريك، وهذا هو الصراط المستقيم الذي أمرنا باقتفائه والسير ورائه، فالأنبياء هم القدوة بلا منازع، فلذا ارتأينا في ظل هذه الظروف الحالكة والمستعصية، وضياع الخطاب الناجح في عالم الأهواء والتصدر أن نقف وقفة متأمل في تلك القصص التي صاغها الرحمن بين دفتي كتابه لتكون مصباحا مضيئا، والوقوف على نماذج مختارة من خطاباتهم مع أقوامهم للوصول إلى معالم خطابية ترشد الأمة وتوضح لهذا الجيل خطوات سيره في تقرير مصيره، إذ إن الخطاب لابد أن يكون موزونا لأن

الدعاة هم سبيل النجاة لا التشريد؛ إذ الهداية ليست من وظيفة البشر بحال وليست لها إلا الدلالة في الحال والمقال وقد اقتضت طبيعة البحث أن نقسمه إلى أربعة مباحث الآتية:

المبحث الأول تناولنا فيه: أسلوب القصص القرآني وبيان ماهية القصة وكيف تم عرضها في السور إيجازا وإطنابا ترغيبا وترهيبا. وفي المبحث الثاني تناولنا: البيئة الضالة والأسلوب الهمجي. وفي المبحث الثالث تناولنا: الاعتدال في الخطاب النبوي. وأخيرا في المبحث الرابع تناولنا: معالم الخطاب الناجح. ثم ختمنا البحث بأهم النتائج التي تم استخلاصها من البحث، ولا ندعي أننا قد بلغنا بلغنا الكمال في هذا البحث ولكنه جهد المقل، فما كان فيه من صواب فهو بتوفيق الله ومنه، وما كان فيه من خطأ فمن عند أنفسنا والله بريء منه ورسوله، وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول: ماهية القصص القرآني وأسلوب عرضها

علم العالم المنصف بالبرهان القاطع والدليل المشاهد أن هذا القرآن معجزة الاسلام الخالدة، وهو خلاص العالم الإنسان مما يشوبه من كوارث طبيعية واجتماعية، تحدى العالم في الإتيان بمثله، وعجزت العرب بكل آدابها وشعرائها وما كانت تفخر به من القدرة على البيان وصناعة الكلام الإتيان بآية واحدة، فقد حوى القرآن أساليب متعددة من البيان، وأكثر هذه الأساليب تأثيرا في النفوس هو الأسلوب القصصي، ولذا سأتناول هذا المبحث بما يأتي:

ماهية القصص؟

لغة: القصص جمع مفرده قصة وهي لغة لها معان أهمها:

١. تتبع الأثر: ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾(١)، أي تتبعي أمره، قال الأصفهاني: القص الأثر، كما قال تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾(٢)، ومنه قيل: لما يبقى من الكلأ فتتبع أثره قصص(٣).

٢. البيان والإعلام: يقال قص عليه الأمر إذا أعلمه، ومنه قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾(٤)، أي نبين لك أحسن البيان.

القصة القرآنية اصطلاحا:

الأخبار والأعلام عن أحوال الامم وحياتهم بما تحويه من حوادث وتقلبات بقصد العبرة والهداية، سواء أكان ذلك بين الرسل وأقوامهم، أم بين الأمم السابقة أفراداً وجماعات(٥).

---

(١) سورة القصص، من الآية ١١.

(٢) سورة الكهف، من الآية ٦٤.

(٣) ينظر: لسان العرب: ٧٤/٧، مادة (قصص).

(٤) سورة يوسف، من الآية ٣.

(٥) ينظر: الدعوة إلى الله تعالى: ١٤٦.

وقال الحرالي: القصص تتبع الوقائع بالإخبار عنها شيئا بعد شيء في ترتيبها في معنى قص الأثر وهو اتباعه حتى ينتهي إلى محل ذي الأثر(١). وقيل: الإخبار عن قضية ذات مراحل، يتبع بعضها بعضاً(٢). كذلك عرفت بانها: تعني الخبر الذي يتكون من مجموعة من الأحداث المترابطة التي تتخللها قصة(٣).

أثر أسلوب القصص القرآني

لقد جاء القرآن الكريم داعيا إلى الهداية والرشاد، بأساليب شتى؛ فتارة بالوعد والوعيد، وتارة بالإقناع العقلي، وتارة ثالثة بوخز الضمير والوجدان، ورابعةً بتوجيه الفطرة إلى حقيقتها، وخامسة بالإعجاز بشتى ألوانه، وأحياناً كثيرة: بأسلوب القصص، الذي هو أقرب الوسائل التربوية إلى فطرة الإنسان، وأكثر العوامل النفسية تأثيرًا فيه، لما في هذا الأسلوب من المحاكاة لحالة الإنسان نفسه، فتراه يعيش بكل كيانه في أحداث القصة، وكأنه أحد أفرادها، فيرى من خلالها الماضي الخفي وتطلعات المستقبل، كل ذلك من خلال تجاوبه مع القصة، فالقصة ولا سيّما إن كانت بأسلوب شيِّق، وبيان رائق لها من التأثير والجاذبية مالا تبلغه أيّ وسيلة أخرى من الوسائل الدعوية أو التعليمية أو التربوية، فكيف إذا كانت بأسلوب ربانيٍّ معجز، له من الواقعية والصدق ودقة التصوير، ومِن السِمَاتِ ما ليس لغيره، ولو أننا قمنا بمقارنة سريعة بين أحدث المناهج التعليمية والتربوية اليوم، لوجدنا أن أكثر المناهج نجاحا في عرض الفكرة أو صياغة المادة العلمية بأسلوب قَصصي جذاب هي أكثرها نجاحا وأينعها ثمارا؛ لأنها تكون حينئذ أحب إلى قلب الطالب، وأقرب إلى فطرته، وأسهل عليه حفظا وفهما، وأدعى لتلقيها بدون أيّ مشقة أو ملل ، ولذلك كانت القصة ولا تزال مدخلا طبيعيا يدخل منه أصحابُ الرسالاتِ والدعواتِ، والهداة، والقادة ، إلى الناس وإلى عقولهم وقلوبهم، ليلقوا فيها بما يريدونهم عليه، من آراء، ومعتقدات، وأعمال(٤)، وكان له حسن الاختيار وتوجيه الالفاظ ما يدهش العقول ويحير الافكار، فمنهاج الاعتدال لا يقوم الا بفهمه وطريقة عرضه لجيل قادم، نستلهم منه تنظيما وترتيبا وفكرا ومنهجا نعالج به قضايانا ونحل به مشاكل الحياة المعاصرة، ولهذا يعد مصدر القصص القرآني من الله سبحانه وتعالى، إذ جاء مناسباً لما يحتاج الناس إليه من عبر وتعاليم، كما جاء مخاطباً لمكنون أنفسهم وعقولهم، فلا يعتبر تأريخاً للبشرية والناس طبقاً لمنهج المؤلفين والمؤرخين بالرغم من أنّه جاء مستنبطاً من الواقع وتألف من الحقائق؛ حيث إنّه لم يهتم بتحليل الأحداث أو الأماكن، إنّما تناول من التاريخ ما ينفع الدعوة الإسلامية ويفيده، ففي منهج البحث عن القصص القرآني

---

(١) ينظر: التعاريف: ٥٨٤.

(٢) ينظر: بحوث في قصص القرآن: ٤١.

(٣) . ينظر المصدر نفسه.

(٤) ينظر: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه: ٧.

وأسلوب عرضه نجد أن القرآن الكريم استخدم كثيرا لفظي النبأ والخبر كنايةً عن الزمن الماضي، لكن مصطلح الخبر ومشتقاته كان مستعملا في حال الحديث عن الأحداث القريبة، في حين أنه وظف النبأ عند الحديث عن الأحداث البعيدة، كما في قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾(١).

ويجدر بالذكر أن القرآن الكريم يستخدم الخبر في بعض الأحيان للأخبار عن أحداث ستحدث في المستقبل، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾(٢)، فللقصص القرآني اثر بالغ في حياة الدعاة وتوجيه الناس إلى المنهج الوسط، فما من شيء أشد اثرا على النفوس من أسلوب القصة، ولذا كان محور القرآن في ايراد الموعظة بالقصة، لم يعتمد القرآن الكريم أسلوباً واحداً لإيصال رسالته إلى الناس، بل تعددت أساليبه وتنوعت كما ذكرنا، فهو حينا يعتمد أسلوب الحوار، وحيناً آخر يعتمد أسلوب ضرب المثل، وتارة يعتمد أسلوب التربية النفسية والتوجيه الخلقي، فأسلوب القصة من الأساليب التي اعتنى القرآن الكريم بها عناية خاصة؛ لما فيها من عنصر التشويق، وجوانب الاتعاظ والاعتبار.

وقد ألمح القرآن إلى هذا في أكثر من آية من ذلك قوله تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٣).

المنهج العملي للقصص القرآني

الحوادث التي يشتمل عليها القصص القرآني، إنما هي قطع من أحداث الحياة، جاء بها القرآن الكريم، وبعثها من الماضي كما هي، دون أن يدخل عليها شيئاً، يغير حقيقة من حقائقها. والتزام النص القرآني واحترامه، والوقوف به عند دلالات ألفاظه اللغوية.. هو الذي ينبغي أن نقف عنده، وأن نأخذ به أنفسنا في كل موقف نقفه من آيات الكتاب الكريم، وخاصة في القصص القرآني، وما اشتمل عليه من أحداث ووقائع وأشخاص، فالقصد الرئيس من القصص القرآني هو الاطلاع على أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية؛ ليعلم المطلع على ذلك سعادة من أطاع الله، وشقاوة من عصاه؛ وهذا يعني أن القصد من القصص القرآني ليس السرد والرواية، وإنما ما تحمل تلك الأخبار والقصص من مواعظ وعبر، ترشد قارئها إلى اتباع سبل الفلاح والرشاد، وتجنبه طرق الزيغ والضلال، قال أبو عبيد: "إن القصص التي قصها الله تعالى عن الأمم الماضية وما عاقبهم به ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين، إنما هو حديث حدث به عن قوم، وباطنها وعظ الآخرين، وتحذيرهم أن يفعلوا كفعلهم، فيحل بهم مثل ما حل بهم"(٤).

---

(١) سورة الكهف، من الآية ١٣.

(٢) سورة القمر، من الآية ٤٥.

(٣) سورة الأعراف، من الآية ١٧٦

(٤) نواهد الابكار وشوارد الافكار: ٩١/٢.

وقريب من هذا ما ذكره ابن عاشور من "أن من مقاصد القرآن في ذكر القصص الماضية أن يعتبر بها المسلمون في الخير والشر"(١)، فالقرآن يضع القصة في إطار ديني، تنفذ معه أشعة روحية إلى النفوس ببيان العبرة الأخلاقية والتربوية التي من أجلها أنزل الله القصة.

المبحث الثاني : البيئة الضالة والاسلوب الهمجي

إن لتأثير البيئة الضالة على أصحابها الاثر الكبير، ففيها تكون الغلبة للأخلاق الفاسدة، ولا يكون للدين ولا للعقل محلاً يعمل فيه، بل يكون هناك تنافر بينهما وبين ما يجري على أرض الواقع الفاسد والضال، فإذا ساد الضلال في مجتمع فلا مجال للوعظ ولا للإرشاد، ولا ينتظر من الناس الصلاح؛ لأن الغالب في ذلك أن الناس يعملون على ما اعتادوا عليه وإن كان ضالاً أو فاسداً، والدليل على ذلك قوله تعالى على لسان الفاسدين الضالين: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾(٢).

ومن تأثيرات البيئة الضالة والفاسدة انعكاسه على الاسلوب المتبع خاصةً إذا تصدر من يدعو للصلاح إلى الانحطاط الاخلاقي والديني كما بين الله ذلك في كتابه العزيز على لسان فرعون حينما نهى قومه على اتباع موسى بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾(٣).

فهذا هو المنهج الهمجي الذي نهى الله عنه، وهو الذي كان سائداً في أقوام الأنبياء قبل إرسال الله لهم انبيائهم مبشرين ومنذرين.

ومن الامثلة على ذلك ما كان من فعل قوم لوط فحينما أرسل الله إليهم نبيهم ليقوم لهم اخلاقهم الفاسدة ومنهجهم المنحرف وبيئتهم الضالة التي انعكست على اخلاقهم كان جوابهم لنبي الله لوط عليه وعلى نبينا افضل الصلاة والسلام: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾(٤).

فهذا الاسلوب دليل على تأثرهم بالبيئة الضالة فكان أسلوبهم همجي في ردهم على نبيهم بل حتى أنهم تجرؤوا على الله سبحانه وتعالى، ولذلك دعى نبي الله نوح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام على الكافرين منهم: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (الطبعة التونسية): ٦٩/٢.
(٢) سورة الزخرف، الآية ٢٢.
(٣) سورة غافر، من الآية ٢٦.
(٤) سورة النمل، الآية ٥٦.
(٥) سورة نوح، الايات ٢٦-٢٧.

فهذا نتاج علم نبي الله عليه السلام؛ لان البيئة الضالة والاخلاق الفاسدة والاسلوب الهمجي لا تخرج ذرية لهم الا فاسدة وضالة، فينشأ جيل ظالم تبعاً لما يرونه وما يسود في مجتمعهم الضال، ولذلك جاءت دعوة نبي الله نوح عليه وعلى نبينا افضل الصلاة والسلام سحاقةً ماحقة فاستجاب الله له وازال كل من في الارض من الشر وهي قوة لا يستطيع ان يقوم بها الا الجبار القدير(١).

ومن الامثلة على الاسلوب الهمجي في البيئة الضالة ما فعل مع سيدنا يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام عندما أرسلت إليه زوجة العزيز وجمعت لذلك النسوة: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾(٢). فخطابها هذا: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، دليل على همجية صادرة من تربية فاسدة في مجتمع ضال فما كان من نبي الله يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام إلا أن يدعو الله قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(٣). لان الطيب لا يستطيع العيش في بيئة كهذه فيأثر العزلة على مخالطة الفاسدين فكانت العصمة من الله فدخل السجن وبداءة مرحلة جديدة من الدعوة بعيدة عن البيئة الضالة والمجتمع الفاسد(٤).

وغالبا ما تكون البيئة الضالة مبينة على أهواء فاسدة وعلوم زائفة وتقاليد همجية غير منضبطة ولا سليمة بل هي موروث باطل، ولو حكّم الإنسان عقله أو فكره بشكل سليم لما عمل بها ولا جعلها منهجاً له ولا أسلوباً لحياته؛ لأنها تنافي الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها(٥). ومع ذلك فإن هذه البيئة الفاسدة الضالة تترك الاثر في المجتمع وينعكس على خطاب أصحابها كما هو واضح في خطاب الخوارج فيما بينهم فقد ذكرت كتب السير أن عبد الرحمن بن ملجم حينما خاطب شبيب بن بجرة قال له: (هل لك في شرف الدنيا والاخرة، قال: وما ذاك؟ قال: قتل علي بن ابي طالب)(٦)، فهذا الحقد الذي ملأ قلوب الحاقدين من الخوارج نابع من بيئة ضالة فاسدة فانعكس على خطابهم وأعمالهم الدنيئة حتى أنهم حقدوا على المؤمنين الصادقين، فهو أسلوب همجي لا يمت إلى الاسلام بصلة، وهو المنتظر ممن يعيش في هكذا بيئة(٧).

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ٣٧١٧/٦.
(٢) سورة يوسف، الايات ٣١-٣٢.
(٣) سورة يوسف، الآية ٣٣.
(٤) ينظر: التفسير الواضح: ١٧٥/٢.
(٥) ينظر: التفسير المنير للزحيلي: ٨٣/٢١.
(٦) ينظر: تاريخ الطبري: ١٤٤/٥.
(٧) ينظر: اسمى المطالب في سيرة امير المؤمنين علي بن ابي طالب: ١٠٤٢/٢.

ISSN: 2071-6028

المبحث الثالث : الاعتدال في الخطاب النبوي

إذا أردنا أن نضرب مثلاً في الخطاب الديني الناجح فأن أدق مثال لذلك هو خطاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأممهم، فإن منهج النبوة من الله ﷻ واحد، فقد قال الله ﷻ في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾(١)، وقال: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾(٢). فهذه أدلة تبين أن خطاب الأنبياء موحد من قبل الله عز وجل وهم معصومون وطريقة خطابهم موحدة لها نفس الملامح والمقومات والاهداف، فإذا أراد المسلم أن يتصدر للخطاب الديني فعليه أن يتبع سنن الأنبياء عند مخاطبتهم لأممهم وسوف نأخذ انموذجاً واحداً من هذه المخاطبات على سبيل المثال لا الحصر، وهو خطاب سيدنا شعيب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام لقومه.

وقبل البدء بتوضيح معالم خطاب نبي الله شعيب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام لابد أن نذكر نبذه مختصره عن قومه، فقوم شعيب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام هم أهل مدين وكانت بلادهم تقع جنوبي الاردن، وهم أصحاب الأيكة، والأيكة هي الغابة الملتفة و الشجرة الملتفة التي كانوا يعبدونها، وكانوا مع كفرهم يطففون بالمكيال والميزان فكانوا اذا اشتروا من الناس يوزنون عليهم واذا باعوهم طففوا في الميزان فأرسل الله إليهم شعيبا عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام يدعوهم إلى الايمان والى نبذ ما كانوا يعملون(٣).

إن خطاب نبي الله شعيب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام إلى قومه خطاب فيه كل الملامح والخصائص التي تجعله ناجحاً مقبولاً حتى لدى أعداء الله سبحانه لكي يؤدي الهدف المنشود منه وهي رجوعهم إلى دين الله عز وجل ونبذهم ما كانوا يعملون من الاعمال التي تفسد المجتمع ومعيشة الناس واتصاف الخطاب بالصدق والرقة اضافة إلى الدقة، مع كونهم ظالمين وباغين، وقد نقل الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز صورة هذه الخطاب بقوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾(٤).

---

(١) سورة ال عمران، من الآية ١٩.
(٢) سورة النساء، الآية ١٦٣.
(٣) ينظر: النبوة والانبياء: ٥٧/١.
(٤) ينظر: سورة الاعراف الايات ٨٥-٨٦.

ISSN: 2071-6028

فالمتأمل لهذا الخطاب يرى فيه أنه تسلسل معهم على وفق الاهمية لدى مخاطبتهم، فطلب منهم توحيد الله والايمان به، وبرهن على ذلك بدلائل بينها الله بقوله: ﴿بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، ثم طلب منهم الكف عن أعمالهم السوء، وبين لهم ان فيها أذى للناس وإنها تؤدي إلى إفساد المجتمع الذي يعيشون فيه، ومن يؤمن بالله لا يفعل هذه الاعمال.

فهو خطاب واضح ودقيق وذو هدف نبيل فيه توحيد الله تعالى ورفع الظلم الحاصل على الناس من جراء البخس في الميزان، ومدعاة إلى اصلاح المجتمع الذي يعيشون فيه كي يحظى الجميع بالسلم والامان ورفاهية العيش ولا تكون أعمالهم هذه سبباً في سلب الحقوق وايذاء الناس، بل ان بأتباعهم لما جاء به نبيهم يكون مجتمعاً إيمانياً مطمئناً تعيش الناس فيه برفاهية وامان واطمئنان(١).

ولو أمعنا النظر في خطابه فانه لم يتوعدهم في أول دعوته بل رغبهم بالإيمان والعمل الصلاح وهذا من مقومات الخطاب الديني الناجح، وقد ذكر الله تعالى ذلك على لسان شعيب عليه وعلى نبينا افضل الصلاة والسلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾(٢).

فدعاهم إلى التقوى، والتقوى هنا ممتزجة من ايمان بالله وعمل، وتصديق هذا الايمان القلبي بالعمل الصالح وهو ترك التخسيس في الميزان، واعطاء الناس حقوقهم، وهكذا يجب ان تكون دعوة المؤمن الصادق .

وأيضاً مما يستنبط من هذا الخطاب ومما يجعله ناجحاً خلوه عن المصلحة الشخصية فهدفه عام وهو إصلاح المجتمع والعيش بسلام وطمأنينة، وهي غاية مطلب الأنبياء والرسل بعد توحيد الله عز وجل، فيقول الله تعالى في كتابه العزيز مخاطبا الناس: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٣).

وينقل لنا القرآن الكريم ما وعد به نبي الله شعيب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام الناس بعد إيمانهم بقوله: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾(٤).

ولكن الظالمين رفضوا وأبوا أن يطيعوا نبي الله شعيب مع معرفتهم بصدقه في دعواه، فقال لهم مخاطباً خطاباً فيه دلالات على أنه من أنجح الخطابات الدينية: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(٥).

---

(١) ينظر: البداية والنهاية طبعة إحياء التراث: ٢١٢/١.
(٢) سورة الشعراء، الآية ١٧٧.
(٣) سورة الأعراف، الآية ٥٦.
(٤) سورة هود، الآية ٨٦.
(٥) سورة هود، من الآية ٨٨.

وفي خطابه أيضاً دلالة على الرأفة والرحمة والنصح مع أنهم كذبوه وطالبوه بأن يخرج من قريتهم هو ومن معه، وقد قال الله عز وجل في كتابه العزيز في ذلك: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾(١).

ومع ذلك كله لا يريد نبي الله شعيب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام أن يخرج من القرية حتى وإن كُذِّب فيها؛ لانه يريد أن يكمل رسالته وهي إيمان الناس بربهم وإصلاح أحوالهم ولكنهم أبوا فعذبهم الله بالرجفة وعذاب يوم الظلة وهذا جزاءاً بما كانوا يعملون(٢). والله تعالى يقول: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٣).

فالذين يريدون أن يخاطبوا الناس خطاباً دينياً ناجحاً عليهم أن يتبعوا سنن الأنبياء في مخاطباتهم لأممهم، فلا يتكلم بلغة تدعو إلى التفرقة أو إلى ظلم بينهم ويكون خاليا من التعصب الأعمى مراعيا في ذلك حقوق الناس واختلافاتهم الفكرية والعرقية والمذهبية والعلمية، كي يحصل على النتائج السليمة الصحيحة لخطابه إياهم ولا يكون مدعاة للتفرقة وتمزيق المجتمع، وهنا قد ذكرنا مثالاً واحداً والأنبياء كلهم على منهج واحد وهو منهج الله الحق.

المبحث الرابع : معالم الخطاب الناجح

إن الخطاب الاسلامي له صفة الوضوح، لأنه خطاب موجه لجميع البشرية وليس للمسلمين فقط فمن شروط الخطاب الاسلامي الناجح أن يخاطب الجميع فلا يوجه إلى صنف من الناس دون غيرهم ولا إلى عرقاً دون غيره او لوناً دون لون اخر، فهو خطاب شامل لجميع البشرية موجهاً لجميع أصناف الناس مستعملا لجميع مفاصل الحياة لكي يرتقي بالمجتمع على اختلاف أشكاله الرقي الامثل ويعيش الناس الحياة السعيدة الخالية من الاحقاد والأضغان والعداوات والعامرة بالطمأنينة والرفاه.

والذين يكلفون بهذه المهمة هم المؤمنون الصادقون الذين يعرفون مقصد الشرع الحكيم في حفظ حياة الناس وأعراضهم وأموالهم فتراهم حينما يوجهون الخطاب يأخذون بنظر الاعتبار هذه المبادئ والقيم التي هي أسس الاسلام في توجيه الدعوة إلى الله كما ذكر ذلك الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز بقوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾(٤).

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٨٨.

(٢) كما ورد في سورة الشعراء: الآية ١٨٩ قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

(٣) سورة الزخرف، الآية ٧٦.

(٤) سورة النحل، الآية ١٢٥.

فمن الحكمة هنا اختيار الوقت المناسب للدعوة والخطاب، والموعظة الحسنة هي اختيار الألفاظ الصالحة لذلك الموقف عند توجيه الخطاب الديني، وحتى عند مجادلتهم فان الله أمر أن تكون المجادلة بالتي هي أحسن.

فلا تستخدم ألفاظ التعنيف والتوبيخ في الاوقات التي تنفع فيها الالفاظ ذات الرقة واللين وكذلك العكس، لكي يحصل الغرض المرجو من هذا الخطاب، فلا بد لمن يتصدر لهذه المهمة أن يكون ذا دراية واسعة بمقاصد الشرع وكيفية التعامل مع خلق الله عز وجل على أرضه، وكذلك لابد أن يكون ذا فكر متنور متطور يواكب العصر الذي يخاطب به الناس؛ لان من الشرع مخاطبة الناس بحسب عقولهم وعلى حسب تطورات أحوالهم وأعرافهم، فلا يهمل التطور العلمي والثقافي الحاصل في المجتمع لمن يريد أن يخاطب الناس خطابا ناجحاً يؤتي ثماره.

فإن كان ممن لا يعي ذلك فسوف يخرج خطابه عن الهدف المرجو منه ويكون مدعاة إلى التخلف أو التطرف أو الانحلال أو التعصب، لأن صاحب الخطاب إن خالف مقصد الشرع في خطابه فسوف يحكم الهوى والنفس فيحيد عن الاسلوب الصحيح في توجيه الخطاب، ويكون بينه وبين من يخاطبه فاصلاً في ظل التطور السريع الحاصل في المجتمع.

أما إن كان خطابه خالياً من عبر ودروس من سبقه كان ذلك سبباً في خروجه عن الهدف المرجو من هذا الخطاب، وعليه أن يجد المعاني الإسلامية المناسبة التي تقرب بين المجتمع على اختلاف أجناسهم وأعرافهم وأحوالهم، ومن هنا كان لابد أن نوضح المعالم الخاصة بالخطاب الاسلامي الناجح فنقول وبالله التوفيق:

إن الخطاب الناجح لابد له من خصائص وميزات وشروط يجب توافرها لكي يحصل المراد منه ويأتي ثماره ومن هذه الخصائص:

اولا: إن الخطاب الديني موجه إلى الإنسان فيجب أن يتنوع بتنوع عقليات وسلوكيات الناس، ويجب أن يكون بأسلوب ونمط واضح صريح كي يحصل المراد منه كما يدل على ذلك خطاب الله سبحانه وتعالى المتمثل بالقرآن الكريم وسنه نبيه محمد ﷺ لان الله قال في حق خطاب نبيه ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[١]، فلقد كان لخطاب الله تعالى في كتابه الكريم وخطاب رسوله ﷺ الاثر الواضح في نفوس المسلمين والمشركين، بل في نفوس المشركين كان تأثيره واضحا فقد روي أن أكابر قريش كأبي سفيان وأبي جهل وغيرهم كانوا يخرجون ليلاً ليسمعوا القرآن من رسول الله ﷺ وهو يصلي في بيته ليلا من غير أن يشعر بهم ولا يعلم أحدهم بالآخر حتى إذا طلع الفجر انفتلوا فيجمعهم الطريق فيتلاوموا[٢]، فهو دليل على تأثرهم بأسلوب الخطاب الديني المتمثل بالقرآن الكريم.

---

(١) سورة النجم، الآيات ٣-٤.

(٢) ينظر: السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي: ص٤٢٨.

ثانيا: لابد للخطاب أن يكون في موضوع واضح ومحدد، وذو هدف سامي مستنداً إلى الشريعة الإسلامية والتي مبتغاها ان يعيش الإنسان بسلام ورفاهية وطمأنينة حتى وإن كان على غير دين الاسلام، فالذي يريد أن يخاطب الناس في أمر ما لابد أن يوضح لهم الهدف والمبتغى والمرجو من خطابه، وأن لا يكون موضوعه متشعباً كي لا تذهب الفائدة من الخطاب(١).

ثالثا: أن يكون هذا الخطاب ذا أسلوب جميل وبسيط مستنبطاً من القرآن الكريم والسنة النبوية وخطابات الأنبياء السابقين الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم والسنة النبوية(٢)، ومن أمثلة ذلك الخطاب الجميل ما أوصى الله به موسى وهارون عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام عندما أرسلهما إلى فرعون فقال لهما: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾(٣).

فهذا شرط من شروط الخطاب الناجح، وهو الاسلوب الامثل والترياق الناجع في مخاطبة الجبابرة، فإذا كان هذا الاسلوب ناجحاً في خطاب الجبابرة أفلا يكون ناجحاً في مخاطبة عامة الناس. ولسيدنا محمد ﷺ صور كثيرة بهذا الاسلوب، منها ما خاطب به أهل مكة بعدما فتحها فقال ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: له أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء(٤). هذه صفات الأنبياء التي يجب أن يتحلى بها المسلم لدى دعوته ومخاطبته للناس فقد ذكر الله سبحانه وتعالى نبيه محمد ﷺ قائلاً في وصفه: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾(٥).

فهي صفة لمن أراد أن يخاطب الناس وهي أن يتحلى بالرحمة واللين بل وحتى المشاورة، ولا يكون خطابه مشتملاً على شدة وغلظة كأن يكون في صدر المتكلم حقدا فينعكس ذلك على خطابه(٦).

فهذه صور للأسلوب الطيب في الخطاب والطلب؛ لان الغاية منها نبيلة وهي إصلاح المجتمع والناس بما يرضي الله ﷻ.

---

(١) ينظر: السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي: ص٤٢٨.
(٢) ينظر: السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي: ص٤٢٨.
(٣) سورة طه، الآية ٤٤.
(٤) ينظر: تأريخ الطبري: ٦١/٣.
(٥) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.
(٦) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٢٩٧/٢.

رابعا: اعطاء الحق في المناقشة والاستفهام من قبل المخاطب ليعبر عن رأيه بحرية وطمأنينة من غير تعد على حقوقه في الخطاب، فليس من ملامح الخطاب الديني التعنت إنما من خصائصه الاقناع بالأسلوب الذي يراه مناسباً لما تحصل به الفائدة والانتفاع(١).

ولذلك صور كثيرة في القرآن الكريم والسنة النبوية، فمما جاء في القرآن الكريم عن لسان الرجل الذي جاء من أقصى المدينة في سورة ياسين: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾(٢).

فهو أسلوب هادئ وهادف وخطاب متنور من غير حزم ولا شدة ولا غلظة، واتبع اسلوب المحاورة والاقناع، وكذلك ما ذكره الله عز وجل في قصة سيدنا ابراهيم عليه وعلى نبينا افضل الصلاة والسلام حينما حاور الجاحد: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٣)، فهذا الخطاب قريب إلى المناقشة من غير تعصب ولا تشدد.

وأما من السنة النبوية فكثير أيضاً فحينما أراد النبي ﷺ أن يوصل للمسلمين عظم رحمة الله بخلقه فعندما قدم على رسول الله ﷺ بسبي فإذا امرأة من السبي، تبتغي، إذا وجدت صبيا في السبي، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، قال رسول الله ﷺ لصحابته: (أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال رسول الله ﷺ: لله أرحم بعباده من هذه بولدها)(٤).

فهذا هو الاسلوب الامثل للخطاب الديني الذي يراعي حق الناس في الفهم والمناقشة والمشاركة في توضيح الخطاب لتحصل الفائدة الكاملة والهدف الذي رسم وهو غاية الخطاب الديني الهادف والناجح.

---

(١) ينظر: السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي: ص٦٠٩.
(٢) سورة يس، الآيات ٢٠-٢١.
(٣) سورة البقرة، الآية ٢٥٨.
(٤) صحيح مسلم، دار الجيل: ٩٧/٨.

خامسا: إن من ملامح الخطاب الديني الناجح هو أن يلتزم المخاطب باستخدام المصادر الشرعية المعتبرة كالقرآن الكريم والسنة النبوية، وأن يتحرى الأدق مما يوافق فحواها مغزى خطابه الذي يوجهه للناس سواء كان خطابا دينيا، أو اجتماعيا أو علميا أو فكريا أو غيره، لان عدم استخدام المصادر الدقيقة في ذلك يجعل الذي يستمع الخطاب في شكٍ من دقة المعلومة التي يريد أن يوصلها صاحب الخطاب، ولربما بعدم استخدام المصادر الدقيقة يكون مردود الخطاب عكسياً ويفقد جوانبه وأهدافه المرسومة له(١).

ومن ذلك أسلوب العلماء الذين استخدموا في خطاباتهم الآيات القرآنية والاحاديث النبوية والتي استنبطوا منها ما يؤيد وجهة نظرهم وصحة خطابهم، وكذلك ما ورد عن الصحابة ومن سبقهم من العلماء ما يؤيد خطابهم.

بل وحتى في وقتنا المعاصر حينما يريد أن يخاطبهم خطابا ناجحاً متعلقاً بقضايا علمية لابد أن يستند إلى نظريات علمية دقيقة ومعلومات صحيحة في هذا الجانب، ومن ذلك ما استدل به العلماء فيما يخص علم الاجنة في بطون الامهات ودلالتها على الاعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية والنظريات العلمية.

وبهذه الملامح يكون الخطاب هادفاً ودقيقاً في إثبات الحق عند الناس على اختلاف أحوالهم وأفكارهم وأعرافهم بل وحتى أنه يزيل النزاع الحاصل بين العلماء فيما يتعلق بالحقائق العلمية فضلاً عن عامة الناس.

وبهذا يأخذ الخطاب الديني الموقع الصحيح الخاص به في حل النزاعات والخلافات بين أعلى المستويات من العلماء والمفكرين وعامة الناس؛ لأنه مستند إلى مصادر دقيقة ورصينة ومعتبرة شرعاً وعرفاً.

سادسا: ان يكون الخطاب الديني متنوعاً ولا يكون مقصوراً على مادة واحدة أو أسلوب واحد، فالناس فيهم الفقير والغني والصغير والكبير وفيهم المسلم وغير المسلم فإذا كان مقصوراً على صنف واحد كان الهدف قاصراً والنتيجة محدودة ولذلك كان خطاب النبي ﷺ عاماً لجميع الناس والكل يفهمه على اختلاف مستوياتهم ومداركهم، وقد قال الله سبحانه وتعالى في حق نبيه محمد ﷺ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾(٢).

(١) ينظر: السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي: ص٦٠٩.
(٢) سورة سبا، الآية ٢٨.

فرسالته ﷺ عالمية وليست خاصة بالمسلمين وهي متنوعه بتنوع الناس على اختلاف أعراقه وأجناسهم وأعرافهم(١).

وعليه فالذي يتصدر للخطاب الديني لابد أن يراعي هذه الصفة، وهي صفة التنوع كي يكون خطابه عاماً لا مقتصراً على صنف من الاصناف.

سابعا: أن لا يكون الخطاب الديني مبنياً على وشاية أو أهواءٍ ناتجة عن خلاف مع الناس أو صنفاً من الاصناف أو عرقاً من الأعراق، فالله سبحانه وتعالى قد ذكر أن من أسباب الخروج عن الحق هو اتباع كلام غير دقيق صادر عن إنسان غير ملتزم شرعاً فقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾(٢). فقد يكون هذا الخطاب الذي انبنى على هذه الوشاية مردوداً وله عواقب وخيمة تؤدي بالمجتمع إلى الهلاك والانحراف فيخرج مقصد الخطاب عن هدفه المرسوم له(٣).

فلذلك لابد على من يتصدر للخطاب الديني أن يتحرى الدقة في المعلومات المأخوذة من الناس ولا ينجر خلف الاهواء والمغالطات التي يريد الفاسقون أن تعم في المجتمع كالطائفية والعرقية والعنصرية التي تعاني منها الكثير من المجتمعات في العالم، فإذا تجنب ذلك حصل على فائدة الخطاب وأدى هدفه المرجو منه .

ثامنا: عدم تزكية النفس فلابد للذي يتصدر الخطاب الديني أن لا يزكي نفسه فهو ليس من المعصومين، ولكن الله جعله في هذه المكانة لكي يؤدي ما كلف به من إصلاح في المجتمع والله تعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾(٤)، فالذي يتصدر الخطاب الديني يجب عليه أن يطلب العون والهداية من الله عز وجل، وأن يبعد حظوظ النفس عن خطابه كي يفتح الله عليه ويجعل النجاة في حديثه.

ومن الصور القرآنية على ذلك قول نبي الله عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام حينما وجه الله له الخطاب: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ

(١) ينظر: ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم: ٢٦٤/١.
(٢) سورة الحجرات، الآية ٦.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٣٢/٢٦.
(٤) سورة النجم، من الآية ٣٢.

إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[١]. فقوله: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾، فإنه وإن كان واثقاً بأنه لم يقل إلا الحق ومع ذلك لم يزك نفسه وهذا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[٢]. فعلى هذا كيف يزكي نفسه من يتصدر للخطاب الديني وهو بشر غير معصوم ولربما خرج بعدم تزكية النفس عن الهدف المرجو من تحقيق الخطاب الديني الناجح.

فهذه السمات والملامح الخاصة بالخطاب الديني الناجح والتي لابد لمن يتصدر لهذه المهمة أن يراعيها ولا يهمل أي جانب منها كي يصل بخطابه إلى أفضل النتائج ويحقق بذلك الاهداف المرجوة من خطابه، ومن الله التوفيق.

(١) سورة المائدة، الآية ١٠٦.
(٢) سورة النجم، من الآية ٣٢.

الخاتمة وأهم النتائج

بعد أن من الله تعالى علينا بإكمال بحثنا هذا لابد أن نسطر على عجالة أهم النتائج التي تم تثبيتها من خلال الرحلة الممتعة مع هذا البحث:

١. ان في دراسة القصص القرآني العبر الكثيرة، فلم يذكرها الله تعالى لغير فائدة، فالواجب التمعن بها واستخلاص العبر منها.
٢. إن الخطاب الديني موجه إلى الإنسان فيجب أن يتنوع بتنوع عقليات وسلوكيات الناس، ويجب أن يكون بأسلوب ونمط واضح صريح كي يحصل المراد منه كما يدل على ذلك خطاب الله سبحانه وتعالى المتمثل بالقرآن الكريم.
٣. لابد للخطاب أن يكون في موضوع واضح ومحدد، وذو هدف سامي مستنداً إلى الشريعة الإسلامية والتي مبتغاها ان يعيش الإنسان بسلام ورفاهية وطمأنينة حتى وإن كان على غير دين الإسلام.
٤. أن لا يكون الخطاب الديني مبنياً على وشاية أو أهواءٍ ناتجة عن خلاف مع الناس أو صنفاً من الأصناف أو عرقاً من الأعراق، بل يجب أن يكون مبنيا على الحق الواضح الذي لا غبار عليه.
٥. إن من ملامح الخطاب الديني الناجح هو أن يلتزم المخاطب باستخدام المصادر الشرعية المعتبرة كالقرآن الكريم والسنة النبوية، وأن يتحرى الأدق مما يوافق فحواها مغزى خطابه الذي يوجهه للناس سواء كان خطابا دينيا، أو اجتماعيا أو علميا أو فكريا أو غيره.

ثبت المصادر

القران الكريم

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢. أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن ابي طالب.
٣. البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير(ت٧٧٤هـ)، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
٤. تأريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير بن يزيد أبو جعفر الطبري (ت٣١٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.
٥. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت١٣٩٣هـ)، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م.
٦. التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت٨١٦هـ)، حققه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
٧. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط٢، ١٤١٨هـ.
٨. التفسير الواضح، الحجازي، محمد محمود، دار الجيل الجديد، بيروت، ط١٠، ١٤١٣هـ.
٩. الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة، عبد العزيز بن عبد الله بن باز (ت١٤٢٠هـ)، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط٤، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
١٠. السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي، أحمد أحمد غلوش، مؤسسة الرسالة، للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.
١١. صحيح مسلم، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٢. غرائب القرآن ورغائب الفرقان. نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
١٣. في ظلال القرآن ، سيد قطب، دار الشروق، ١٣٨٥هـ.
١٤. القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي.
١٥. لسان العرب، ابن منظور الافريقي (ت٧١١هـ)، المحقق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف.
١٦. النبوة والأنبياء في القُرآنِ والسنَّةِ، إعداد الباحث في القرآن والسنَّة علي بن نايف الشحود.
١٧. نواهد الابكار وشوارد الافكار، حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، المملكة العربية السعودية.